المحاضرة الخامسة: النقد السميائي.

تمهيد:

شهد النصف الثاني من القرن العشرين تحولات نقدية كبرى وعميقة، قاربت النصوص الأدبية، باعتبارها إشكالية أضحت تؤرق القارئ، لا تعطيه ما يريد، لأن لغتها مراوغة تخفي أكثر مما تبدي، وتضمر أكثر مما تظهر، فكان لابد من إيجاد آليات جديدة لقراءة النص الأدبي لذلك كان الانفجار النقدي بالمناهج المختلفة، وكان تعدد المناهج وسرعة تحولها وتطورها.

وكان من ثمار تطور الدرس اللساني الحديث ظهور مناهج وتيارات نقدية كثيرة، منها السميائية التي سعت إلى تطوير طرائق منفتحة للقراءة، متخطية جدار اللغة، ومنطلقة نحو تأسيس نظرية في علم الأدب، والانطلاق من ثمة إلى الاهتمام بخطابات أخرى كالخطاب الفلسفي والديني، بوصفها أنظمة فكرية تخفي خلفها سيلا من المعاني التي يجب القبض عليها.

لقد استطاع المنهج السميائي أن يفرض حضوره منذ إرهاصاته الأولى، من خلال اقتراحه بدائل منهجية، لذلك أطلق السميائيون العنان لحرية القراءة بحثا عن النسق المختفي وراء الإشارات أو الأنظمة الدلالية للشفرات والعلامات رغبة في كشف طرق إنتاج المعنى.

تعريف المصطلح:

لعل أول إشكالية تطالعنا في البحث عن كلمة سميولوجيا هي إشكالية المصطلح إذ أن الكثير يقرون بأن تعريف هذا المصطلح ليس بالأمر الهين لتعدد وجهات النظر. ولتعدد المعاير الثقافية في إطلاق الألفاظ والكلمات الدالة على هذا المصطلح "، والقضية الأولى التي تواجهنا فيما يتصل بالسيميولوجيا هي قضية المصطلح، وذلك لتعدد المصادر الثقافية في إطلاق الكلمات الدالة، ابتداء من الاسم العلمي سنجد أن المتحدثين باللغة الفرنسية يتبعون تقاليد مدرسة "جنيف" التي تزعمها "دي سوسير" ويطلقون على هذا اللون "السيميولوجيا" وسنجد أن المتحدثين "بالانجلوسكسونية" يتبعون تقاليد

موازية إلى "شارل بيرس" الأمريكي المنطقي الشهير ويؤثرون مصطلح "السيميوتيك" أما النقاد والباحثون العرب فيتوزعون على ثلاثة اتجاهات، بعضهم يؤثر مصطلح "سيميولوجيا"..... ومنهم من يعتمد على المصادر الانجلوسكسونيه فيفضل كلمة "السيميوطيقا"..... أما الاتجاه الثالث فهو يبحث في التراث العربي ذاته على الكلمات المناظرة والتي يمكن أن تؤدي بشكل تقريبي الدلالة اللغوية المطلوبة في العلم الحديث ويقع على السيمياء ويشتق منها السيميائية."[1].

ويعود هذا الاختلاف في الاتجاهات والمدارس إلى تعدد الروافد والمشارب وإلى تصورات كل سيميائي على حدة وإلى المنطلقات النظرية والمنهجية.

ونظرا لتشعب استخدامات المنهج السيميولوجي في مجالات معرفية مختلفة ظهر تباين كبير بين الدارسين في استثماره، في تعريفه، في ضبط حدوده ومصطلحاته، وذلك تبعا لاختلاف المرجعيات، وتباين المنطلقات الحضارية، وهو تعدد وتباين يرمز إلى الحيرة والتردد حول نظامها الابستمولوجي.

المهم أن عدة كتابات ومعاجم لغوية وسميائية تجمع أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يعني بدراسة العلامات ويندرج في هذا التعريف كل من "سويسر" "جون مونان" "كريستيان ميتز"، "تدروف" ، "غريماس" ،"جون دوبوا"، "رولان بارت" و آخرون و ها هو "مونان" يعرفها: "بأنها العلم الذي يدرس كل أنساق العلامات أو الرموز التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس"[2] وثمة تعريفات وآراء أخرى تنظر إلى السميائيات باعتبارها منهجا من المناهج أو وسيلة من وسائل البحث، ويبدو أن الدارسين العرب يتعاملون معها هكذا و يعدونها منهجا .

"تمثل "السيميوطيقا" أو "السميولوجيا" مكانه هامة ضمن المناهج النقدية. ولئن كان البعض يعتبرها مجرد موضة من الموضات، فإن هذا الوصف لم ينقص من قيمتها كمنهج علمي وإجرائي في الدراسات الأدبية وتحليل النصوص الأدبية بالدرجة الأولى، بل ولم يزد المشتغلين بها إلا مقاومة لكل نزعة تبسيطية. ولذلك فهي في الاعتبار الصحيح منهج لا يمكن التقليل من أهميته أو التقليص مما يمكن أن يفتحه من سبل وآفاق جديدة تنير مجاهل التعبير الأدبي والفني ...".[3]

---

[1] صلاح فضل: المرجع السابق، ص96-97.

[2] سشايفرجان ماري ديكور: **القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترجمة منذر عياشي**، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2007، ص246.

[3] سعيد يقطين: **انفتاح النص الروائي النص والسياق**، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2001، ص38.

المهم أن السيميائية أو السيمائية أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا أو علم الإشارة أو علم العلامات أو علم الأدلة.....الخ، ترجمات وتعريبات تطول لعلم واحد بمصطلحين شائعين هما (**Sémiologie**) من **Sémion** اليونانية حسب العالم اللغوي السويسري" فردينان دي سويسر" أو **Semiotics** حسب العالم والفيلسوف الأمريكي "شارل ساندرس بيرس".

وقد أسهم في وجود هذا العلم عدد من العلماء والفلاسفة والنقاد ويجمع الدارسون على أن الإرهاصات الأولى لعلم السيمياء تعود إلى الحضارة الإغريقية القديمة، إذ يمكن العثور على إشارات داخل الموروث الفكري الذي خلفه اليونان للسيميائيات الحديثة، ولعل الجهود التي قام بها الرواقيون في اعتبار العلامة تحتوي دالا ومدلولا تعد الأرضية الفكرية التي انطلقت منها السيميائيات الحديثة.[1]

وأورد "عز الدين مناصرة" أن تاريخ السيميائيات القديمة مر بمراحل: المرحلة الأولى كانت محاولات الرواقيين، المرحلة الثانية محاولات القديس أوغسطين حول تشكيل نظرية تأويلية تطبق على النصوص المقدسة،.... المرحلة الثالثة هي مرحلة العصور الوسطى التي لا نكاد نجد فيها الشيء الكثير، تم المرحلة الرابعة بدأت تتشكل فيها نظرية العلامات والإشارات خلال القرن التاسع عشر مع "جون لوك" والذي أضحت السميائيات عنده تهتم بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل البشري أثناء العملية الإدراكية [2].

وأياما كان الأصل اللغوي، والجذر التاريخي لهذا المنهج فإن "السيميولوجيا هي علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها. وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة، وهكذا فإن السميولوجيا هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلائقها في هذا الكون ويدرس بالتالي توزعها ووظائفها الداخلية والخارجية ".[3]

---

[1] ينظر: محمد خاقاني ورضا عامر: **المنهج السميائي، آليات مقاربة الخطاب الشعري الحديث واشكالياته**، مجلة دراسات اللغة العربية وآدابها، العدد 2، أصفهان، 2010، ص 45.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص46.

[3] ينظر: مازن الوعر: **دراسات لسانية تطبيقية**، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1989، ص156.

ويتكئ التحليل السميولوجي على اللسانيات البنيوية ويلتقي معها في جملة من الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية، ولا يكتفي بدراسة النص في إطار البنية اللغوية الداخلية وتفسيره في حدودها، بل يتجاوز ذلك إذ يحاول الوقوف على كل الملابسات الخارجية لفضاء النص وإدراك الظواهر الاجتماعية والنفسية والثقافية الخفية في جوانبها التواصلية، اللغوية منها، وغير اللغوية، بما في ذلك طبيعة الإشارات وأنساقها وخواصها، بغية تحقيق أكبر قدر من القراءات الاحتمالية، بحيث يظل النص مفتوحا على قراءات أخرى.

وأيا ما كان موضوع إشارة السيميائيات (حركة، صوت، صورة، صورة...الخ) لا يمكن إدراكه إلا من خلال اللغة، ولتحديد منهجية هذه الإشارة لا بد من مبادئ ضرورية لدراستها وهي: مبدأ المحايثة الذي "يتطلب الاستقراء الداخلي للوظائف النصية التي تساهم في توليد الدلالة، ولا يهمها العلاقات الخارجية ولا الحيثيات السوسيو تاريخية والاقتصادية التي أفرزت عمل المبدع. إن السيميوطيقا تبحث عن شكل المضمون عبر العلاقات التشاكلية أو التضادية الموجودة بين العناصر داخل العمل الفني[1].

ثاني مبدأ تقوم عليه السيميولوجيا هو: التحليل البنيوي الذي يعد مبدأ له القدرة على الكشف عن شكل المضمون وتحديد الاختلافات في العلاقات الموجودة بين العناصر الداخلية للنسق.

والمبدأ الثالث هو تحليل الخطاب وتحاول السميائية من خلال هذا المبدأ البحث عن كيفية توليد النصوص، واختلافها سطحيا، واتفاقها عمقيا [2].

ولن نجانب الصواب إذا قلنا أن اغلب التقنيات السميائية المعتمدة في تحليل النصوص تمر عبر مرحلتين: مرحلة التحليل الأفقي ومرحلة التحليلي العمودي.

وكما قلنا سالفا ما يعنينا في المقياس هو تجليات النقد السميولوجي في النقد العربي المعاصر لذلك لن نفصل كثيرا في هذا، على أنه لابد من التأكيد أن "جون لوك"، "فردينان دي سوسير"، "تشارلز بيرس" يعدون رواد البحث السميولوجي. ثم إن هناك فرق بين "سيميولوجييا " "دي سوير"و"سميوطيقا" " بيرس".

---

[1] جميل حمداوي: **السيموطيقيا والعنونة**، مجلة عالم الفكر، م 25، ع03، يناير، مارس، 1997، ص80.

[2] المرجع نفسه: ص 80.

1- سميولوجيا دي سوسير: يعد "سوسير" أول من بشر بمولد السميولوجيا وأول من حدد موضوعها.

إذ عد علم اللغة جزاء من السميولوجيا العام يقول: "اللغة نظام اشاري يعبر عن الأفكار ... وبذلك يمكن مقارنته بالنظام الكتابي وبالنظام الألف بائي للصم والبكم وبالنظام الإشاري النقشي... إن العلم الذي يدرس حياة الإشارة في مجتمع من المجتمعات يمكن أن يكون جزءا من علم النفس الاجتماعي، وبهذا سوف أدعو هذا العلم سميولوجيا (**Sémiologie**).[1]

اللغة عند سوسير نظام من العلامات تعبر عن الأفكار مثلها مثل أنظمة أخرى تشبهها كأبجدية الصم، والإشارات العسكرية، وغيرها، ولكن اللغة هي أهم هذه الأنظمة العلاماتية.

العلامة "**Signe**" في اللغة عنصر تتحدد قيمته بموقع وجوده في منظومة العلامات، أو هي مستودع من العلامات، إلا أن العلامة اللغوية لا تربط شيئا باسم، بل تصورا بصورة سمعية، والصورة السمعية ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي البصمة النفسية للصوت، أو ذاك الانطباع الذي تشكله حواسنا[2].

وللعلامة اللغوية حسب تعريف "سوسير" صفة جوهرية هي "الطبيعة الاعتباطية" فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، ويوضح سوسير معنى الاعتباطية بأنها لا ترتبط بدافع، أي أنها اعتباطية لأنها ليس لها صله طبيعية بالمدلول.

وإضافة إلى مفهوم اعتباطية الإشارة، وما تنتج عنه من جعل الإشارة حرة تتحول من دلالة التواطؤ إلى دلالات التخيل، ومفهوم الثنائيات وعلى رأسها التفريق بين اللغة (**LANGUAGE**) والكلام (**PAROLE**)، فقد قدم سوسير تصوره عن الحضور **PRESENCE** والغياب **ABSENCE** على أساس أن العلاقات التركيبية بين الوحدات اللغوية تشكل علاقات حضورية، والعلاقات الاستبدالية هي علاقات غيابية تقوم على مبدأ الترابط، وفق قوى الذاكرة الممكنة، التي تثير الأفكار وتستدعي الألفاظ.[3]

ومن ثمة فان السيميولوجيا تنطلق من "نظام جديد للوقائع" يعد اللسان فيها نسق دلائل معبرة عن أفكار، لتكتسب من ثمة وظيفة رمزية داخل المجتمعات المختلفة، ولما كانت هذه الوقائع تشتمل داخلها على عدة أصناف من الدلائل،

---

[1] F. DE. Saussure: course in general linguistics. Translated by wbakin. New York. 1959. P16.

[2] ينظر: أحمد مومن: **اللسانيات النشأة والتطور**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002، ص127.

[3] ينظر فردينان دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر،1996، ص156.

فان الدلائل اللسانية ليست سوى فرع من هذا العلم العام، فالدلائل اللسانية لا تشكل إلا فرعا من عموم الدلائل، فهي علم خاص بنوع محدد من الدلائل.

اختصارا "درس سوسير العلامة اللغوية ووضع خواصها الأساسية ورأى أنها تندرج في منظومة أكبر هي العلامات بصفة عامة فإذا كانت الكلمة علامة على الفكر أو الشيء، فإنها تقترب في ذلك من علامات أخرى سمعية وبصرية، تدل على شيء آخر غير ذاتها، وأن المستقبل يعد نشأة علم كبير لنظم العلامات المختلفة، يعد علم اللغة جزءا منه ويخضع لقوانينه، وكانت إشارات سوسير إلى المحاور الاستبدالية والتركيبية والعلاقة الاعتباطية الدال والمدلول هي العلامات في المجتمع بأسره[1].

2- **سيميوطيقا بيرس:** إن نظرية "بيرس" "السيميوطيقية" نظرية جمعية، لأنها أوسع نطاقا من نظرية "سوسير"، إذ جعل فاعليتها خارج، علم اللغة، وأعطاها تحديدا أشمل وأكثر عمومية بوصفها كيانا ثلاثي المبنى يتكون من المصورة التي تقابل الدال عند سوسير، والمفسرة التي تقابل المدلول، والموضوع لا يوجد له مقابل عنده.

ويرى عدد غير يسير من الدارسين أن تاريخ السيميولوجيا، بوصفه علما يبدأ مع بيرس الذي درس الرموز ودلالاتها وعلاقاتها " يعتبر ساندرس بيرس من النقاد الغربيين الأوائل في التأسيس لعلم السيميوطيقا أو علم العلامات، وقد مثل بحق الاتجاه السيميوطيقي في الدراسات الحديثة، وقد تجلى ذلك في كتابه الموسوم ب "كتابات حول العلامة " الذي ظهر قبل كتاب سوسير "محاظرات في الألسنية العامة الصادر "عام 1916".[2]

وتقوم سيميوطيقا "بيرس" على المنطق والظاهراتية والرياضيات، وحتى الفلسفة وكل شيء في هذا الكون يصفه بأنه نظام سميولوجي.

لقد أسس بيرس لعلم العلامات بمنطلقات فلسفية منطقية، وعد من الأوائل المبشرين بالمنهج البراغماتي في الولايات المتحدة الأمريكية، فوضع الخطوات المنهجية لدراسة العلامة، حيث ميز بين ثلاث أنواع من الإشارات التي تعتبر مجالا لأنواع خاصة من العلامة تقوم بين الدال والمدلول فيها علاقة التجاوز المكاني وهي ذات طابع بصري في مجملها.[3]

---

[1] صلاح فضل: المرجع السابق، ص97.

[2] بشير تاورريت: المرجع السابق، ص 119.

[3] صلاح فضل: المرجع السابق، ص 98.

إذن تبنى بيرس رؤية جديدة في التعاطي مع الشأن الإنساني، وفي صياغة هذا الواقع وتحديد حجمه وقياس امتداداته فجاء بمقاربة واسعة عن مقاربة سوسير وهو ما أطلق عليه سميوطيقا المنطق.

ولعل غالبية الباحثين انتصر إلى سيميوطيقا "بيرس"مقارنة بسميولوجيا "سوسير" وهاهي "جوليا كريستيفا" تقول: "فعلا نحن مدينون "لشارل ساندرس بيرس"بالاستخدام الحديث لمصطلح السميائيات".[1]

اتسمت سميوطيقا بيرس بطابع الشمولية واستهدفت بالدراسة أنساق معرفية كثيرة وانتشرت في دوائر الأدب، الفن والثقافة " وما نستخلصه عموما هو أن النظرية السيميوطيقية عند بيرس اتسمت في طابعها العام بنظرة شمولية استهدفت مجموعة من التواشجات بينها وبين مختلف الأنساق المعرفية الأخرى، فهي ذات وظيفة فلسفية، منطقية، بحتة تقوم أساسا على فكرة الاستمرارية والواقعية والتداولية". [2]

اتجاهات السميولوجيا:

يرى بعض العلماء والمؤرخين أن هناك اتجاهين رئيسين هما الاتجاه الأمريكي ورائده "بيرس" ومعه "كارناب" و"ويسيبوك" والاتجاه الفرنسي ورائده "سوسير" ومن سار على دربه مثل "بويسنس" و "بريطو" و"مونان " و "رولان بارت"

وهناك من يرى أن هناك اتجاهات فرعية يمثلها "غريماس" و "بوشتكي" وجوليا كريستيفا"[3] ويعرف هذا الاتجاه بمدرسة باريس.

ويرى آخرون أن الاتجاه الروسي اتجاه ثالث من اتجاهات السميائيات وأن للمدرسة الفرنسية فروع هي كالتالي: سمولوجيا التواصل والإبلاغ (جورج مونان)، سميولوجيا الدلالة ولها عدة فروع: اتجاه بارت الذي يحاول تطبيق اللغة على الأنساق غير اللغوية، اتجاه باريس رائده "ميثال اريفي" وكلود كوكيه" و"غريماس"واتجاه المادية مع "جولياكريستيفا" واتجاه الرمزية مع "مولينو" وغيره.[4]

---

[1] يوسف وغليسي: **مناهج النقد الأدبي،** ط 3، جسور للنشر والتوزيع، 2010، ص96.

[2] بشير تاورريت: المرجع السابق، ص 124.

[3] مبارك حنون: **دروس في السميائيات،** ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،1987، ص85.

[4] ينظر: جميل حمداوي: **سميولوجيا التواصل وسميولوجيا الدلالة،** ديوان العرب، فبراير، 2007 م.

ويعود هذا الاختلاف في الاتجاهات والغزارة في المدارس إلى تعدد الروافد والمشارب، وإلى تصورات كل سيميائي على حدة، ومنطلقا ته النظرية والمنهجية.

لقد شكلت كل هذه الاتجاهات السميائية روافد أصيلة لبناء قراءات سميائية ليس للأدب فحسب، بل لقراءة أنظمة علامية واشارية أخرى، فبالإضافة إلى قراءة الأدب: شعرا، رواية، وبالإضافة لقراءة المسرح والفن رسما، موسيقى سينما، فقد دخلت السمياء كل دوائر الخطاب، وأصلت لقراءة الخطابات الفلسفية والدينية والفكرية. وقد امتازت الدراسات السميائية للأدب بحرصها على فهم العلاقة الأدبية في مستوى العلاقة الجدلية بين النص الأدبي والمجالات الثقافية والاديولوجية، ببنيتها الاقتصادية والاجتماعية وفي مستوى النص الأدبي نفسه. [1]

[1] ينظر: أمينة رشيد: **السميوطيقا، مفاهيم وأبعاد،** مجلة فصول، ع3، 1981م، ص 48-49.